

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣).

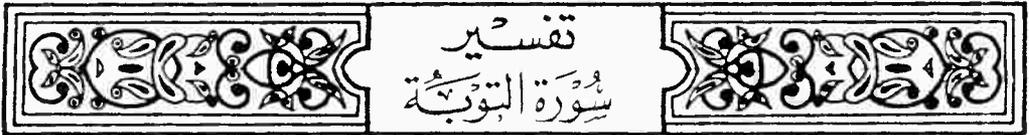
لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاتة بينهم وبين الكفار، فقد روى الحاكم في مستدركه عن النبي ﷺ قال: «ولا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً» ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ...﴾. وفي الصحيحين «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم». وفي المسند والسنن عن رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. أي إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤).

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر، أبداً لا ينقطع، ولا ينقضي ولا يسأم، ولا يمل لحسنه وتنوعه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَدْوٍ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥).

ذكر في هذه الآية أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة «المرء مع من أحب» وفي الحديث الآخر «من أحب قوماً فهو منهم» وفي رواية «حشر معهم» ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ يشمل جميع القربات، لا ما يطلقه علماء الفرائض على القربات من غير ذوي الفروض والعصبات كما قد يزعمه بعضهم، ويحتج هذه الآية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، وإنما لم يبسم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان

رضي الله عنه وأرضاه. وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له، فقوله تعالى: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة، أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (١).  
 ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وللحديث «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعدهه إلى مدته».

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٢).

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وإعلام من الله ورسوله ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيتته ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. روى البخاري أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ .

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ المراد بالأشهر الحرم أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2] أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلمهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدائها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحايبيج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرب الله بين الصلاة والزكاة، وفي الصحيحين «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث.

﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي القرآن تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمانة حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتشر دعوة الله في عبادته. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، أو في رسالة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ .

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إليهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ما تقفوا فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي أمان، ويرتكون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا... ﴿﴾ مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدة مع أهل مكة من ذي العقدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالوا حلفاءهم، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره، وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾.

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة (الإل) القرابة والذمة والعهد.

﴿أَشْرَوْا بِبَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾.

يقول تعالى ذمّاً للمشركين، وحنناً للمؤمنين على قتالهم: ﴿أَشْرَوْا بِبَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ روى البزار عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وأتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ» وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله. ﴿فَإِن تَابُوا﴾ فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

﴿وَإِن نَّكثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي عهودهم وموائيقهم ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَ أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. قال قتادة وغيره: ﴿أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف وعدد رجالاً.

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَرُمًا خَشِنْتُمْ فَوَلَّوْا فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣).

وهذا أيضاً تبيح وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقْرِضُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ (الأنفال: 30) وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: 1] وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: 76] وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً﴾ [التوبة: 13] قيل: المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلوموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال بغياً وتكبراً، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، فكان ما كان، والله الحمد، وقوله ﴿أَخْشَيْنَاهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخسؤهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، فييدي الأمر، وما شئت كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَتَلَوْتُمْ بِعِذَّةِ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤).

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فَتَلَوْتُمْ بِعِذَّةِ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية ﴿وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني خزاعة.

﴿وَيَذْهَبْ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥).

﴿وَيَذْهَبْ غِيظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ذكر ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال: «يا عويش، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن». ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية، والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو

العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن تترككم مهملين لا نخبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي بطانة ودخيلة، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (١٧) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ (٢٣) [العنكبوت: 1-3]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179] والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عباده من طبيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وقضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُونَ﴾ (١٧).

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرؤا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أي وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي بحالهم ومالهم كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابي، لقال: صابي، والمشرك لقال: مشرك. ﴿أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بشرتهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨).

فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد، روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان». قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه. وروى عبد بن حميد في مسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله». وقد روى الدارقطني عن أنس: «إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم». وروى الحافظ البهائي في المستقصى عن أنس: يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار

بيوتي، وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم. وقال عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره». ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي ولم يخف إلا من الله، ولم يخش سواه.

﴿أَجَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦).

عن ابن عباس قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماراه فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال: ﴿مُتَّكِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (المؤمنون: 67) وقوله: ﴿أَجَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. قال الضحاك: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر ويعيرونهم بالشرك فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله ﴿أَجَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ...﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (١٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤).

أمر تعالى بمباينة الكفار، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم، ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان وتوعد على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (المجادلة: 22) روى الحافظ البيهقي قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (المجادلة: 22) ثم أمر تعالى رسوله أن يتبع من آثر أهله وقرباته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ

وَأَنبَأْتُكُمْ وَإِخْرَانَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴿١٥﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتَجْدَرُ تَحْتُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي تحبونها لطبيعتها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

روى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» انفراد بإخراجه البخاري. وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذنان البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ ﴿١٦﴾﴾.

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم، وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بغددهم، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع، أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده، وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿سَكِينَتُهُ﴾ أي وثباته على رسوله. ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا، وقدموا عليه ﷺ مسلمين ولحقوه، وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقرب من عشرين يوماً.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأً. وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة، وقد روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم». قال عطاء: الحرم كله مسجد. ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في لصحيح «المؤمن لا ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أن الناس قالوا: لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ . . .﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾ [التوبة: 29] أي فسوف يغنيكم الله من فضله من وجه آخر غير ذلك، وقد عوضهم الله بما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به، وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . . .﴾ فأهل الكتاب في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم، وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقاتلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه! فلما بعث وكفروا به، وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين، لأنه من عند الله بل لحظوظهم وأهوائهم، فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وكملهم. وقد أمر الله بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله

أفواجاً، واستقامت جزيرة العرب، وكان ذلك سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وكانت غزوة تبوك. ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عَنْ يَدَيْهِ﴾ أي قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاحِبُونَ﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون، فهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروههم إلى أضيقه».

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكْفُرُوا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (٢٥).

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم الشيعة، والفرية على الله تعالى، فقد قال اليهود في العزيز: إنه ابن الله، وقال النصارى في المسيح: إنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وقد أكذب الله الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلافهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَنَلَهُمُ اللَّهُ﴾ لعنهم الله ﴿أَن يَكْفُرُوا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟.

﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١).

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ورسول الله يقرأ هذه الآية ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدي ما تقول؟ أبيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله، ما يضرك؟ أبيضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون» ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه أتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٣) .

يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء، والزراع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال تعالى : ﴿ أَعَجَبَ أَكْفَارًا نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد: 20] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ . . . ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله زوى لي الأرض مشارقتها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها» .

﴿ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَلْجَأُوا كَثِيرًا مِنَ الْخَبِرَاتِ وَالرُّهْبَانِ لِأَمْوَالِهِمْ أَلْتَأْتِيهِمْ بِالْبَاطِلِ يُضَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥) .

الأخبار من اليهود، والرهبان من النصارى . ومقصود الآية التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال . وفي الحديث الصحيح «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية فارس والروم قال: فمن الناس إلا هؤلاء والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ لِأَمْوَالِهِمْ أَلْتَأْتِيهِمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وذلك أنهم يأكبون الدنيا بالدين وقوله تعالى : ﴿ يُضَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون . ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . . . ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء،

وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك: وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها.

والكنز: هو المال الذي لا تودى زكاته، وما أدي زكاته فليس بكنز. روى الإمام أحمد أن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٢٥).

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ...﴾ أي يقال لهم: هذا الكلام تبيكياً وتقريباً وتهكماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ﴾ (١٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: 48، 49]، وقد قيل: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذبه به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، فلما كانت هذه الأموال أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الآخرة. وروى الحافظ أبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يوسع جلده، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦).

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماؤكم وأموالكم - وأحسبه - قال: وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا

ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فعمل من يبلغه يكون أوعى من بعض من سمعه». ورواه البخاري في التفسير ومسلم ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحدو بها على ما سبق في كتاب الله: قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْتُلُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكِيمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 25] ولهذا تغلظ الدية في الشهر الحرم في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم ﴿رَقَبْتُمْ أَلْمَشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي جميعاً ﴿كَمَا بَدَّلْتُمْ كَافَّةً﴾ أي جميعهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والأشهر أن تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرم منسوخ.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْكِرُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا مما ذم الله به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله. وكان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول: أيها الناس، إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حررنا المحرم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حررنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٨﴾﴾.

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر، وحمارة القيظ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟ أي ما لكم فعلتم هكذا رضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بما ترجع» وأشار بالسبابة، انفرد بإخراجه مسلم. وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة» ثم تلا هذه

الآية ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي عند الله قليل. لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: اتنوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه، فقال: أمالي من كبير، ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى، وهو يقول: أف لك من دار، إن كان كثير لك قليل، وإن كان قليل لك قصير، وإن كان منك لفي غرور.

﴿إِلَّا نَسْفِرُوا بِعَذَابِكُمْ غَدَابًا أَلِيمًا وَنَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا نَسْفِرُوا بِعَذَابِكُمْ غَدَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتأقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر، فكان عذابهم ﴿وَنَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي لنصرة نبيه، وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [عدد: 38] وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتأقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا نَضُرُّهُ﴾ أي إلا تنصروا رسوله، فإن الله نصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارياً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم سيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويشيه، ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي تأيده ونصره عليه، أي على الرسول في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي الملائكة ﴿وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ كلمة الذين كفروا هي الشرك، وكلمة الله هي لا إله إلا الله. وفي الصحيحين، سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منبع الجناب، لا يضام من لاذ ببابه، واحتتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١).

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أمر الله تعالى بالنفير التام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وقيل: كهولاً وشباناً، ما سمع الله عذر أحد، قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾... فقال: أرى ربنا استغفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير دنفونه. ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ غنياً وفقيراً وقويماً وضعيفاً ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تفرحون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخره لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة».

﴿ لَوْ كَانَ عَرَصًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفُةُ وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٢).

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَصًا قَرِيبًا ﴾ غنيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي قريباً أيضاً ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ أي لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفُةُ ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ ﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي لو لم يكن لدينا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسْبِيَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ (١٣).

قال عون: هل سمعت بمعاينة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاينة، فقال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ قال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿ فَإِذَا اسْتَنْذَوْكَ لِيَعِضْ شَأْنَهُمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ ﴾ [النور: 62] وقوله: ﴿ حَتَّى يَسْبِيَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي في إبداء الأعدار ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذن في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال:

﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤).

﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما نديهم إليه بادروا وامتلوا ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِالْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِدُّونَ﴾ (٤٥).

﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت في صحة ما جتتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِدُّونَ﴾ أي يتحiron يقدمون رجلاً، ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا يَجِدُ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦).

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أخرجهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي قدراً، ثم بين وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهْمُ وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧).

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لأنهم جناء مخدولون ﴿وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي وأسرعوا سير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهْمُ﴾ أي مطيعون لهم، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستصحونهم، وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين، وفساد كبير، أو عيون يسمعون لهم الأخبار، وينقلونها إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

يقول تعالى محرضاً لنبه عليه ﷺ على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي لقد عملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة

طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رتمه العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام، وأهله غاظهم ذلك، وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩).

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿أَتَدْنٰ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا نَفْتِيَّ﴾ بالخروج معك بسبب الجوارح من نساء الروم. قال تعالى: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. قال رسول الله ﷺ وهو في ذات يوم جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا حد العام في جلاذ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بني سلمة، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس، على أنا نبخله، فقال رسول الله ﷺ: «وأبي داء أدوأ من البخل؟» ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا محيد لهم عنبا، ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥٥).

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره، ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا ﴿وَكَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).  
﴿قُلْ﴾ أي لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوتٌ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبُّصُوتٌ بِنَا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي ننتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي ننتظر بكم هذا، أو هذا، بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ .

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .  
 ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

﴿وَمَا مَنَّهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام أن الله لا يمل حتى تملوا، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

يقول تعالى لرسوله عليه السلام: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حَيَّرَ وَابْتَعَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: 131] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. ﴿وَتَرْهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي ويريدون أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

يخبر الله تعالى نبيه عليه السلام عن جزعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يميناً مؤكدة ﴿وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ أي في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف .

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاطًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أي حصناً يتحصنون به، وحرزاً يتحرزون به ﴿أَوْ مَعْرَاطًا﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً، لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن يخالطوا المؤمنين .

﴿وَمِنَهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمِنَهُمْ﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمُكَ﴾ أي يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم. أتى النبي ﷺ بصدقة قسمها ما هنا وهناك حتى ذهبت، قال: ووراء رجل من الأنصار فقال: ما هذا بعدل، فنزلت هذه الآية .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والافتقار بآثاره .

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ .

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين . ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ الفقير أسوأ حالاً من المسكين، وقدم الفقراء في الآية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير. وفي الحديث: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة والمقمتان، والثمرة والثمرتان»، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً» رواه الشيخان. والعاملون عليها هم الجبابة واسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك. والمؤلفة قلوبهم أقسام، فمنهم من يعطي ليلسلم، كما

أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ. وقال النبي ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم»، ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطي ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. والرقاب هم المكاتبون. والغارمون: هم من تحمل حمالة، أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه، أو في معصيته ثم تاب فهؤلاء يدفع لهم. وفي سبيل الله، منهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله. وابن السبيل هو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطي من الصدقات ما يكفيه إلى بلده، وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطي من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حكماً مقدرًا بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .  
يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جنتاه وحلفنا له صدقنا ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي هو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ﴾ ذكر أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت، فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب، فأنزل الله هذه الآية.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِّنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَبَقُوا لِنَارِ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل، أي شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد الله ورسوله في حد ﴿فَأَبَ لُؤْأَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أي مهاناً معذباً ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي هذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا بِإِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا بِإِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي أن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة السورة الفاضحة، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

قال رجل من المنافقين: ما أرى قرآن هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا السنة، وأجبنا عند اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فقال ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وإن رجليه لتسبقان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ.

﴿لَا تَعْذِرُوا فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

وقوله: ﴿لَا تَعْذِرُوا فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنْ نَعَفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أي لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَسْبِغُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰلسِفُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

يقول تعالى منكرأ على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَسْبِغُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن الانفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنَّا نَمُكِّرُ هٰذَا﴾ [الجنانية: 34] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰلسِفُونَ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٧٨).

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها، مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٧٩).

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم. وقوله: ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن: بدينهم. وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي في الكذب والباطل ﴿أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لتبتعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وبعاعاً بباع، حتى لو دخلوا حجر ضرب لدخلتموه»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمن»، وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٧).

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم تحبوا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ﴿وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في آية أخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ (٥٢) [النجم: 53] أي الأمة المؤتفكة، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي يهلكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة

بارسال الرسل، وإزاحة العلل ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صار إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٦).

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمي والسهر». وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104] وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي يعز من أطاعه، فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٧).

يخبر تعالى بما أعدده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي حسنة طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب: آنتهما وما فيهما، وجنتان من فضة: آنتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في عدن». وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو حيس في أرضه التي ولد فيها»، قالوا: يا رسول الله أفلا تحير الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»، ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان، يقال له: الوسيلة، لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة. وفي صحيح مسلم: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم

سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة». ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما روى مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك فيقول: هل رضيت؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً». أخرجاه من حديث مالك.

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا ۖ يَصِيرُ فِيهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَنِسَ ۖ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره بأن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُوا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ .

قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتل رجلان: جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصرون أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته، وقيل: في عبد الله بن أبي، هم بقتل رسول الله ﷺ، أو في نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ، وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ويمن سعادته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال للأنصار: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»، ثم دعاهم الله إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُوا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي وإن استمروا على طريقهم ﴿يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أي بالقتل والهم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن مَّاتْنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) .

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى .

﴿ فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّن فَضْلِهِ يَجْلُؤُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٧٧) .

فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك .

قوله : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴾ (٧٨) .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم ، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها ، وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم وأنه تعالى علام الغيوب ، أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٩) .

وهذا أيضاً من صفات المنافقين ، لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المستصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بيسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . وفي البخاري عن أبي مسور رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل - نؤاجر أنفسنا في الحمل - على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مراء ، وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، رواه مسلم . روى الإمام أحمد عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع ، وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال : فمللت من عمامتي لوثاً أو لوئين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد منه سداداً ، ولا أصغر منه ولا أذم ببيعير ساقه لم أر بالبيع ناقة

أحسن منها، فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «نعم» قال: دونك هذه الناقة، قال: فلمزه رجل، فقال: هذا يتصدق بهذه؟ فوالله لهي خير منه، قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: كذبت، بل هو خير منك ومنها ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً، قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وشماله، ثم قال: «قد أفلح المزهذ المجهد» ثلاثاً. المزهذ في العيش، والمجهد في العبادة. وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم، واستهزائهم بالمؤمنين، ولأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨١)

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية، أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم»، فقال الله من شدة غضبه عليهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 16].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا ببقعودهم بعد خروجه: ﴿وَكْرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ فما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، روى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع رسول الله ﷺ ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءَِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٦).

ثم قال متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ أي فليضحكوا فيها ما شاؤوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فتفرح العيون، فلأن سفتاً أزوجت فيها لجزت» ورواه ابن ماجه. وروى ابن أبي الدنيا عن زيد بن رفيع رفعه، قال: «إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القيح زماناً، قال: فتقول لهم الخزنة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم، يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاشى؛ فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة، لا يجيبهم، ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: 77] فيأسون من كل خير».

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُّقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُّقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي تعزيراً لهم، وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَتَقَلِّبُ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110] فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها. ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي مع الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٨).

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره، ليستغفر له، أو يدعوا لهم، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، كما روى البخاري أنه جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه، وقد هناك ربك أن تصلي عليه؟ فقال

رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 9] وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق، قال: فصل عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّتَىٰ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ...﴾ تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة عند تفسير الآية رقم (٥٥) من هذه السورة.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِيِّنَ﴾ (٨٦).

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِيِّنَ﴾.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧).

ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد من النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لَحُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ إِذَا يَأْسَؤُنَّ مِنَ الْيَوْمِ بِأَنَّ الْيَوْمَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَبِيبٌ أَلْفَاظٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الاحزاب: 19] أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء. وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ من بيان حالهم وما لهم. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون

له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب من حول المدينة، وهم نفر من بني غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١).

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره، لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عن أبي تمامة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله، قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة، ثم تفرغ للذي للدنيا. وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مكرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسئلك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللهم وقد أقرنا بالإساءة، فاغفر لنا، وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَجْلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢).

قال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لَا أَحِدٌ مَّا أَجْلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتهم سيراً إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر».

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣).

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيَةِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيَةِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها، يجزيكم عليها.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم، ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾، أي خبث نجس بواطنهم واعتقادهم، وماواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، أي من الآثام والخطايا.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانٍ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ .

وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَأِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله، وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من حجرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ .

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، أي أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وفي الحديث «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»، رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي، ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الأنبياء: 109] روى مسلم عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة». وقوله:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والحكمة والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨).

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي هي منعكسة عليهم، والسوء دائر عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَوَاتِ الرُّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَبَّحْنَاهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩).

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرينة يتقربون بها عند الله، ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَبَّحْنَاهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠).

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم المقيم. قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ. فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم: أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من انراضة يعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم ويسبونهم. عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون، لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ  
تَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدِبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾﴾ .

يخبر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي مرنوا واستمروا، ومنه يقال: شيطان مريد، ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي عتا وتجبر. وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمِهِمْ وَلَتَعْرَفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [عمد: 30] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً، وقد أعلم ﷺ حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم. والله أعلم. وروى الحافظ ابن عساكر أن رجلاً يقال له حرملة: أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا أتيت بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تحرقن على أحد سترًا». ﴿سَنَعْدِبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني القتل والسبي، أو بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين. وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه، وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشدك الله أنهم أنا؟ قال: لا، ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّ اللَّهَ  
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾﴾ .

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديماً وشكاً شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهو لاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين. قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة، وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ، وعفا عنهم.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم. روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل عليّ وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك». وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ رحمة لهم. وقوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بمن يستحق ذلك منك. ومن هو أهل له. وكان النبي ﷺ إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته ولده، وولد ولده. رواه الإمام أحمد.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾﴾ .

هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب، ويمحصها ويمحّنها، وأخبر تعالى أن كل من تاب تاب الله عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أحد.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَیَ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَدَةُ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾﴾ .

هذا وعيد من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿بِیَوْمِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١١٦﴾﴾ [الحاقة: 18] روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان».

﴿وَالْأَخْرُوتَ مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿وَالْأَخْرُوتَ مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ...﴾ هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، وقعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا، وميلاً إلى الدعة، والحفظ، وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجىء هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ...﴾ [التوبة: 117] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي هم تحت

عفو الله إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذلك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حِجَابًا الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾ .

سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى مكة من مشركي قريش، يماثلهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنحهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المباراة إلى قومه من الأنصار فخطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه، قالوا: لا أنعم الله بك علينا، يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته دعوة رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أمر أحد، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه، فأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يصلي فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «أنا على

سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة. ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ﴾ أي ما أردنا بينائه إلا خيراً، ورفقاً بالناس وهم كذبة. ﴿يُحْيُونَ أَنْ يَطَّهَرُوا﴾ كانوا يستنجون بالماء بعد الحجارة. والمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء أو مسجد النبي ﷺ في المدينة، قولان ولا منافاة لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد النبي ﷺ أولى، وفي الحديث: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» وفيه كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً ﴿رَبِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شقاء ونفاقاً ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي بموتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه، وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له، ولهذا قال لحسن: بايعهم والله وأعلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة، وفي بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشرنوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا ثقيل ولا نستقيل، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ وقوله: ﴿يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أي سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة، ولهذا جاء في الصحيحين «وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». وقوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ...﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد وهذا كقوله: ﴿وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87] ﴿وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122] ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا...﴾ أي فالمستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْسِرُونَ الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الَّذِينَ يُدْعُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَالْحَمْدِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى مَحَابِدِ اللَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ فَلَهُنَّ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ [9: 24].

هذا نعت للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة، والخلال الجلييلة ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿الْعَمِيدُونَ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال. فمن أخص الأقوال الحمد، فهذا قال: ﴿الْمُحْسِنُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله: ﴿سَيَحِبُّكَ﴾ [التحریم: 5] أي صائمت. وكذا الركوع والسجود، وهي عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ﴾. وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما يتبع فعله، ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله ﴿وَالْحَامِلُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ وذلك في تحليل ما أحل، وتحريم ما حرم. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [9: 116] وَمَا كَانَتْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ وَعَدَوَاتٍ بَيْنَهُمْ وَلَهُمْ أَعْدَاءٌ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٧﴾

روى الإمام أحمد أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية فقال: «أي عم، قل: «لا إله إلا الله» كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرون لك ما لم أنه عنك» فنزلت ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ...﴾ ونزل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] أخرجاه. وروى الإمام أحمد عن أبي بردة قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا، ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه، وعيناه تذرغان، فقام عمر إليه، وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله، ما لك؟ قال: «سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناى رحمة لها من النار». قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا يستغفر لهم؟ فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إنى لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾. وروى أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني وذكر

الحديث . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ أي لما مات تبين له أنه عدو لله . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ أي لمتضرع ﴿ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥) .

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، وحكمه العادل : إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [نصفت : 17] قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه ، فتركوا . فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تعدوا نبيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ، ولم ينه عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١١٦) .

قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين ، وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لأولى لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٧) .

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . ﴿ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أي من النفقة والظهر والزداد والماء ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَصُوتُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨) .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا . . . ﴾ هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين

إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يبتدون إلى ما يصنعون فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم، وتوبة عليهم. ولهذا قال:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً. روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّغَتْ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠).

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب في رغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿وَلَا يَطَّغَتْ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ ولا ينالون منه ظفراً وعلبة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمُ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنْتَبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١).

ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُنْتَبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا ﴿بِهِ﴾ كما قال هناك ﴿إِلَّا كُنْتَبَ لَهُمُ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه الأفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾ وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة. روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاه من المنبر ثم حث فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده: هكذا يحركها. وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) يرددها مراراً. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ قال قتادة: ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهلهم إلا ازدادوا قرباً من الله.

﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْمَعُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١١١).

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من أسلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41] وقال ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ...﴾ [التوبة: 120] قال فسخ ذلك بهذه الآية. ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً، ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصبية، يعني السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَسْمَعُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ نزلت هذه الآية في أناس من الصحابة خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبعثون الخبير ﴿لِيَسْمَعُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله، فعذرهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ

اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١١٢).

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام. وقوله: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رقيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١١٤).

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي يقول بعضهم لبعض ذلك، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل حكى غير واحد الإجماع على ذلك.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١١٥).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ...﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَّوْشِقًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: 82) وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: 44] وهذا من جملة شقائهم، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سىء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١١٦).

أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وفي الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحاً، وما من عام إلا والذي بعده شر منه» سمعته من نبيكم ﷺ.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١١٧).

هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي تلفتوا ﴿هَذَا بَرَأَكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ أَنْصَرَفُوا﴾ أي تولوا عن الحق، وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا، لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِوا عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُتْتَفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ [الذثر: 49، 50].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ .

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي من جنسهم، وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 129] وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164] وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. أو ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولد في أبي وأمي، ولم يمسن من سفاح الجاهلية شيء». وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وفي الصحيح «إن هذا الدين يسر، وشريعته سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه». ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ [الشعراء: 215].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٢٩﴾ .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله كافي. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.